

الأمثل في تفسير كتاب الأ المنزل

[546] إِيَّاهُمْ كَانَ باطلا. وتضيف الآيات نقلا عن أهل جهنم: (إِن تَخَذْنَاهُمْ سُخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ). نعم، إِنَّا كُنَّا نَسْخَرُ مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الْعِظَمَاءِ ذَوِي الْمَقَامِ الرَّفِيعِ، وَنَصْفَهُمْ بِالْأَشْرَارِ، وَأَحْيَانَا نَصْفَهُمْ بِأَوْصَافٍ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ، وَنَعْتَبِرُهُمْ أَهْلًا نَاسًا حَقَرَاءَ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ نَنْظُرَ إِلَيْهِمْ، وَلَكِنْ اتَّضَحَ لَنَا الْآنَ أَنَّ جَهْلَنَا وَغُرُورَنَا وَأَهْوَاءَنَا هِيَ الَّتِي أَسَدَلَتْ عَلَى أَعْيُنِنَا سِتَائِرَ حُجُبِ الْحَقِيقَةِ عَنَّا، فَهَؤُلَاءِ كَانُوا مِنَ الْمُقْرَبِينَ وَمَكَانَهُمُ الْآنَ فِي الْجَنَّةِ. مجموعة من المفسرين ذكروا تفسيراً آخر لهذه الآية، إذ قالوا: إِنَّ مَسْأَلَةَ سُخْرِيَّتِهِمْ إِيَّاهُمْ إِنْ أَوْصَاهُمْ فِي عَالَمِ الدُّنْيَا، وَجُمْلَةً (أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ) إِيَّاهُمْ إِنْ أَوْصَاهُمْ فِي جَهَنَّمَ، وَتَعْنِي هُنَا أَنَّ أَبْصَارَنَا فِي هَذَا الْمَكَانِ وَبَيْنَ هَذِهِ النَّيِّرَانِ وَالْدُخَانِ لَا يُمْكِنُهَا رُؤْيَاهُمْ. وَلَكِنْ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَصَحُّ. وَمِنْ الضَّرُورِيِّ الْإِلْتِفَاتُ إِلَى أَنَّ أَحَدَ أَسْبَابِ عَدَمِ إِدْرَاكِ الْحَقَائِقِ هُوَ عَدَمُ اخْتِذَاهَا بِطَائِعِ الْجَدِّ إِضَافَةً إِلَى الْإِسْتِهْزَاءِ بِهَا، إِذْ يَجِبُ عَلَى الدَّوَامِ مَنَاقِشَةَ الْحَقَائِقِ بِشَكْلِ جَدِّي لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا. ثُمَّ تَخْرُجُ الْآيَةُ الْآخِرَةُ بِالنَّاتِجَةِ الَّتِي تَمُخِّصُ عَنْهَا الْجِدَالَ بَيْنَ أَهْلِ جَهَنَّمَ، وَتؤكد على ما مضى بالقول: (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)(1). فَأَهْلُ جَهَنَّمَ مُبْتَلَوْنَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِالْخِصَامِ وَالنِّزَاعِ وَالْحُرُوبِ. فَالنِّزَاعُ وَالْجِدَالَ يَتَحَكَّمُ بِهِمْ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ يَتَخَاصِمُونَ مَعَ هَذَا وَذَاكَ. وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي تَبْرَزَ فِيهِ الْأَسْرَارُ وَمَا تَخْفِيهِ الصُّدُورُ، تَرَاهُمْ يَتَنَازَعُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي جَهَنَّمَ، فَأَصْدِقَاءُ الْأَمْسِ أَعْدَاءُ الْيَوْمِ، وَالتَّابِعُونَ فِي الْأَمْسِ صَارُوا مُعَارِضِينَ الْيَوْمِ، وَيَبْقَى - فَقَطْ - خَطُّ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، خَطٌّ _____ 1 - (تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) بَيَانٌ لـ (ذَلِكَ).